وفحص الهباء الواقع من الهواء على مساحة قدم مربعة في دقيقة من الزمان في احدى مركبات السكة الحديدية فوجد انه لما كان فيها اربعة اشخاص فقط وكانت كوتان من كواها مفتوحتين كانت الاجسام الحيّة فيه ٢٩٥ جسمًا ولما دخلها عشرة اشخاص وأُغلقت احدى الكوتين صارت الاجسام الحيّة ثلاثة آلاف وستة وعشرين جسمًا

هذا ولا يُعلَم حتى الآن اي هذه الاجسام مضرٌّ واَيُّها غير مضر ولكن لا شبهة في ان بعضها مضرٌّ جدًّا والحكيم يتّقيها كلها اذا امكنه كما انه اذا كلبت بعض كلاب السوق اتقى الكلاب كلها لانه لا يعلم الكلب من غير الكلب وكما انه يتقي الافاعي كلها والسامّ منها قليل جدًّا

و بستناد ما تقدّم اولاً ان ارفع الاماكن اقلها خطرًا من تكاثر الاجسام الحيّة في هوائها

ثانيًا انهُ يجب تقليل ازدحام الناس وذلك بتوسيع الشوارع وابعاد البيوت بعضها عن بعض وتقليل عدد السكان فيها

ثالثًا انهُ يجب رش الطرق بالماء لمنع ثوران الغبار لان الغبار الثائر يحمل الاجسام الحيّة وينشرها في الهواء

البدو

لجناب رفعتلو سليمان افندي البستاني (١)

البدو اقوام رعاة لا يبتنون بيتًا ثابتًا بل يقيمون حيث عنّ وطاب لهم ذاهبين ببيوتهم على ظهور مطاياهم يتصيّدونها حيث اقاموا معتمدين في معيشتهم على ماشيتهم يغذّونها بما انبتت الارض من كلإ الطبيعة و يغتذون بلحومها والبانها و يتخذون ما فاض لديهم منها ومن صوفها وشعرها ووبرها لسد ما بقي من احتياجاتهم من مطعمٍ وملبسٍ ومسكنٍ واكتساب درهمٍ يستعينون بهِ لدى الحاجة. والكلام الآن مقصور على بدو العرب دون سواهم وعلى البحث في حالتهم الراهنة من حيث معيشتهم ومآكلهم وملابسهم ومساكنهم ولغتهم وشعرهم وغزواتهم وسائر اصطلاحاتهم وعاداتهم

والعرب جميعًا من بدوٍ وحضرٍ من اصل واحد يقطنون بلادًا واحدة وهي شبه جزيرة العرب الواقعة بين خليج فارس وبحر عمان والاوقيانوس الهندي والبحر الاحمر متصلةً برًّا بسوريا والعراق . فالحضر يقطنون السواحل واخصبها بلاد تهامة وحضرموت وبعض سواحل اليمن

(١) من خطبة تلاها في الجلسة الاحتفالية لجمعية شمس البرّ في بيروت

والحجاز والاراضي المرتفعة المروية بماء المطر كهضاب نجد واليمامة والجبال الممتدة من الحائل في الحجاز متخللة قسمًا كبيرًا من بلاد الحجاز واليمن وعمامة ولهم ايضًا بعض البلدان في السهول . اما البدو فاكثر سكانهم في السهول يراقبون سير الفصول فاذا اشتدّ بهم الحر طلبوا الانهر ومجاري المياه والاراضي النضرة . واذا ذهب القيظ ونزل الغيث وارتوت الارض وانبتت ربيعها توغلوا في القفار مستصحبين ماشيتهم وبيوتهم . وهم على كلتا الحالتين لا ينقطعون عن مسايلة الحضر لبيع ما لديهم وشراء ما احتاجوا اليه من مأكول وملبوس

قلنا والعرب في الاصل بدوًا وحضرًا من اصل واحد يقطنون بلادًا واحدة وهي بلاد العرب . اما الآن فهم ليسوا محصورين فيها بل امتدّوا قبل الاسلام وبعده الى ما اتصل ببلادهم ولم يتصل فصارت منهم قبائل كثيرة في غزواتها الى المغرب وافريقية وسكنتها وامتدّت قبائل أخرى الى العراق وما بين النهرين وبلاد العجم فاستوطنتها وظلمت فيها الى ايامنا هذه

ويلوح للباحث في احوال البدو ان هذا الامتداد مع ما رافقه من الاختلاط باهالي البلدان التي حلّوها احدث تغييرًا كثيرًا في اخلاقهم وعاداتهم . غير ان الحقيقة بخلاف ذلك فان التغيّر الطارئ انما هو دون الطفيف الاّ في الذين تحضروا منهم وسكنوا المدن والقرى وتعاطوا اعمالها اما اليها فهؤلاء خارجون عن حدّ بحثنا . اما المقيمون على البداوة فلا احرص منهم على ما ورثوا من العرف والعادة وطبيعة معيشتهم تمكّن فيهم ذلك الميل . نعم ان انتشار المذهب الاسلامي هذّب كثيرًا من اخلاقهم واباد منكرات كثيرة ولكنهم ما فتئوا على فطرتهم متصفين بما اتصفوا به قبل الاسلام من الحسنات والسيئات فهم الآن بحماستهم وشهامتهم وحفظهم للذمام ورعاية الغريب والجار وعدم انضمامهم وشقاقهم على ما كانوا عليه قبل ثلثة آلاف عام وسيظلون كذلك الى ما شاء الله ولا تغيّرهم الاّ الحضارة فهي التي تُذهب ما في نفوسهم . فلو رأينا السموأل وهو يقول

تعيّرنا أنّا قليلٌ عديدنا فقلتُ لها ان الكرام قليلُ
وما ضرنا انّا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجار الاكثرين ذليلُ

والآخر وهو يقول

أنّا وان كرُمت اوائلنا لسنا على الاحساب نتكلُ
نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعلُ مثلما فعلوا

ورأينا راكان شيخ العجمان (من شعراء البدو في الزمن الحالي) وهو يقول

يفخرْ حشاك بالعظم الرميمْ مفخر البزّون بالسبع الغشوم

(والبزّون عندهم الهرّ) لقلنا لا شك ان هذا الشبل من ذاك الاسد . ولو رجعنا الى معلقة

امرئ القيس حيث يقول

غدائرهُ مستشزرات الى العلى تضلُّ العقاص في مثنّى ومرسلِ

وسرنا في مطير وهم مُغيرون بجماعةٍ من فتيانهم على الضفير في يومنا هذا لقلنا ما ادراهُ حتى تنبّأ فوصفهم في هذا الموقع منذ اربعة عشر قرنًا وامثال ذلك اكثر من ان تُذكَر

ونقول شيئًا ابلغ وهو اننا لو خرجنا من دمشق الشام الى عزب عنزه والروله وضربنا في البادية حتى اتصلنا الى ثمر الجبل وانعطفنا يمينًا الى العجمان وتوغلنا في البر حتى بلغنا الضفير ومطير وسرنا من الرثمين شمالًا الى ان ادركنا المتفق على الفرات وعبرنا دجلة الى بين كبانة وربيعة وانعطفنا شرقًا جنوبيًا الى بني اسد وبني لام حتى اتصلنا الى كعب في بلاد العجم لما رأينا اختلافًا في اخلاقهم فوق ما نرى بين اهالي بيروت واحدى قرى لبنان

وكأن في البداوة سرًّا ليس في الحضارة فان الطبيعة قد قضت على الحضر بالتقلُّب والتفنُّق وعلى البدو بالثبات على حالةٍ واحدة . فالحضر اشبه برجل رأى الشمس مشرقة فسار في طلب محل شروقها فخاض البحور وصعد الجبال وراد السهول فسار تارةً في رياض نضرة فسرَّح نظرهُ وجنى منها ما جنى ثم ساقهُ القدر الى غابات واشواك فمزَّق الشوك جلدهُ واظلم عليهِ الليل فهشمتهُ الثعالب واكلهُ البرغوث وانهكهُ النعاس وما صدَّق ان طلع عليهِ ضوء النهار فاستبشر وسار وتقلَّبت عليهِ الادوار بين بؤس ونعيم والآمال تسوقهُ الى بلوغ قمة التمدن ولن يبلغها . والبدوي اشبه برحى تدور على محورها وترجع الى حيث كانت دون ان يؤثر فيها الدوران . فكما ان البدو رحّالون باجسامهم فالحضر رحّالون باجسامهم وعقولهم وربما اتصلوا بتقدمهم الى الرحيل والطيران بسيوفهم وجنانهم بما فيها فينزلون يومًا في امركا وآخر في اليابان والثالث ينصبون خيمهم على ظهور الحيتان فوق الاوقيانوس الهندي

والكلُّ يعلم ان البدو موصوفون بخشونة الطباع وربما وصفهم الواصف بانهم برابرة متوغلون في التوحش وهو وهمٌ فاحش . وغاية ما يقال فيهم انهم لم ينالوا من التمدن العصري الا نزرًا قليلًا غير انهم جامعون رقة الاحساس على دقة الادراك . تراهم متأخرين واي تأخر عن جيرانهم وابناء عمهم الحضر ولكنهم ليسوا على ما يظن الاكثرون من الانفراد والعزلة مقتصرين كل الاقتصار على معاشرة اباعرهم وخيلهم فان كل قبيلة منهم تساهل ما جاورها من البلدان وتخالط باهاليها وتتجر معهم وتبادل محصولاتهم ومصنوعاتهم بمحصولاتها ومستملكاتها ثم تنقلب راجعة كالظبي الداجن ملَّ الاقامة في حظيرة ضيقة فسار يضرب في الفلوات . فهم نفّارون من الاقامة في البلدان ولاسيما ما ضاق منها . ولي على ذلك حديث انقله لكم وقد دار منذ بضع سنين بين رجل من

كبراء تجار العرب وشيخ من رؤساء امرائهم فقال التاجر على مَ يا مولاي وانت ذو ثروة لم ينلها احد من الناس تؤثر الاقامة في البر والقفر على البلدان المعمورة ذات الحدائق النضيرة تعرض نفسك لأرق الليل وقلق النهار فاطرق الشيخ برهة ثم قال اجبني قبل ما هي مساحة منزلك فقال مائة ذراع في عرض مثلها فقال الامير ما قولك لو خرجتَ الى مائة ذراع أخرى قال يصدني جيراني قال فانظر اذًا الى هذا السهل النضر والفرات عنه على مرحلة يوم الى يميني ودجلة على مسير يومين الى يساري حتى تتصل الى القرنة جنوبًا وترجع الى الحلة شمالاً بين مسافة خمسة ايام فهذا كلهُ بيتي فكيف استبدلهُ بقفصك الحرج ولو طمرتهُ بالجواهر لا ورب الكعبة

وقد اجمع اكثر الباحثين في حال البدو على جعلهم فئةً واحدةً والأولى ان يكونوا ثلث فئات .

البدو ونصف البدو وبدو البدو

فالبدو وهم الفئة الكبرى يتميزون بما تقدم من الصفات

ونصف البدو يقال فيهم ذلك ويُزاد ان حظهم اوفر فلا تحوجهم قلة المياه الى الرحيل بل ينزلون على مجاري الانهر الكبيرة يقيمون في بيوتهم الشعرية او اكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل والبرديّ يزرعون ما جاورهم من الارض ويظلون فيها حتى اذا اجدبت المنابت او طابت خواطرهم منها هجروها الى منازل اخرى وعاودوها بعد حين ومنهم قبائل المنتفق على الفرات وبنو اسد قوم الاخطل وبنو لام الذين ينتمي بعضهم الى الدروز على دجلة وبنو تميم والعبدان على شط العرب وبنو كعب على كارون في بلاد فارس

اما بدو البدو فاقف عند ذكرهم خيفة ان تأخذكم الريبة فيما اقول وهو قولٌ غريب ولكنهُ اقرب الاقوال الى الامكان . وهم فئة قليلة اذا صحَّ ان يطلق اسم البدوي الصرف على احد من الناس فعليها يُطلق . ولا بدَّ قبل ذكر اوصافهم من ذكر شيء عن منشاهم . ألا تعجبون اذا قيل انهم اوربيو الاصل من دم افرنجي . نعم وهم الجماعة المعروفة باسم الصُّلَبَة . ولا اقرب الى الظن من انها من بقايا الصليبيين الذين تشتتوا بعد ان مزّقت شملهم دولة الايوبيين والمماليك والتتر فالظاهر ان طائفة منهم التجأت الى بادية الشام وامتزجت باهاليها وجنّسها الزمان بجنسها وعلى ذلك ادلّة منها

اولاً . كثرة العيون الزرق فيهم بخلاف سائر العرب

ثانيًا . امتلاء الوجه ووفرة الشعر فيهِ

ثالثًا . اذا سألتهم عن اجدادهم قالوا اجدادنا الفرنك

رابعًا . عدم انتمائهم الى مذهب مخصوص

خامساً . ولأن كان الزمان فعل فيهم فعلاً قاطعاً انهم لا يزالون اقل سمرة من سواهم

سادساً . اختلاف هيئة معيشتهم عن سائر قبائل البدو

وحاصل الامر ان كل الدلائل تشير الى انهم ليسوا عرباً . فالاسباب السالفة مع اتسامهم باسم الصُّلَبة واعتقادهم بانهم من دم افرنجي تدل كل الدلالة على انهم من بقايا الصليبيين . ومن غريب ما شهدته فيهم مباينة بيّنة في منطقهم وارتجاله كثير في لفظهم وهو اشبه بلفظ اهالي جنوبي لبنان ولهم تعبيرات لا يعرفها البدو ونعرفها في سوريا ولبنان . فمن اصطلاحهم في التعجب ان يقولوا "ياحَرَبي" وفي التقرُّب ان يقولوا "ياعيني" وفي الاستنجاد "دخالك" "ويابي وياخبي" وكلها غير مستعمل بهذا المعنى على هذا الوضع عند عرب البادية . وهم على قلتهم موزعون في كل بادية العرب يقيمون زرافات قليلة في اماكن مختلفة لا يعتمدون على اقتناء الابل والخيل بل عندهم الأتن يتقلون عليها بيوتهم اذا ارادوا الرحيل ولهم مهارة عجيبة في القنص . ويكتسون اكثر الاحيان بجلود الغزلان ويكثرون الجولان في البرّ وقلما يقربون المدن وهم اعرف الناس بطرق المفاوز والقفار حتى ان البدو انفسهم يتخذونهم ادلّة في رحلاتهم البعيدة . ومن صفاتهم انهم لا يغزون ولا يُغزَون ولا يستعملون السلاح الاّ للقنص وهم حيث حلوا في مأمن من غزوات البدو لانهم في ذمار الجميع ويعتبرون دون من سواهم من العرب رتبةً ومقاماً ولا يزوّجون ولا يتزوجون الاّ بعضٌ ببعض ومن اكبر العار عند العرب ان يسطو احدهم على صابي . فهذا اجمل صفاتهم

اما سائر البدو فما يصدق على قبيلة منهم يصدق على من سواها من حيث المشارب والملابس والمآكل وقد يكون للمنازل تأثير وقتي فعلى سواحل الانبر مثلاً يصيدون السمك ولا يذوقونه في البوادي وحتى سابلوا البلاد العامرة اقبلوا على ثمارها ولا يرون منها شيئاً عندهم واذا حلّوا المدن لبسوا الاحذية والنعال وهم في منازلهم لا حذاء لهم الاّ جلد الارجل وهو امتن من النعل . فقلّة تعدهم تقضي بقلة حاجاتهم واستمرار حالة بلادهم يقضي ببساطة معيشتهم فهم الآن يأكلون ما اكلوا في زمن الجاهلية ولكنهم لا يشربون ما شربوا . فاخص غذائهم اللبن واللحم من محصولاتهم ومقتنياتهم والخبز والتمر والارزّ يأتون به من حيث سابلوا وقد يستخرجون المنبتة الطبيعية كالفطر والكمأة وينتضون الارانب والغزلان واليربوع وطير البرّ ويلتقطون الجراد يأخذونه من منازله اكداساً فيجففونه ويأكلونه قديداً وله عندهم مواسم معلومة في شهري آذار ونيسان

اما طريقة مأكلهم فشهيرة فاذا اقبلوا على الطعام لا يعتلون الكراسي جالسين الى موائد مغشّاة بغطاء من الابريسم او الكتان وبايديهم السكاكين والشوكات بل يبسطون الخوان وهو بساط مصنوع من الشعر او السفرة وفي عندهم حصير مدوّر مصنوع من سعف النخل او صدور

النحاس في المنديات الكبيرة والمضايف تُحضر عليها انواع الطعام دفعةً واحدة فيقعون حولها على شكل دائرة جاثين على ركبة واحدة لا يمسون الطعام باليسرى بل باليمنى والمواعين مشتركة بينهم حتى اذا انتهوا منه مسحوا ايديهم بلحاهم والسلام . اما بيوت الشيوخ والكبراء فيزاد فيها على ذلك بان يُطاف بالابريق على الحضور قبل الطعام فيغسلون ايديهم او يبللونها . وبعد الفراغ منه قد يغسلون بالماء والصابون . وفي الولائم اوحيث حضر ضيف كريم وذُبحت الذبائح رضاق الخوان عن الحضور يجلسون اليه افواجًا كلما انتهى احدهم قام ولا يكاد يقوم حتى يحل محله آخر الى ان ينتهي الجميع . وليس لي هنا جزور منحورا و منطٌ[1] مسطح لترو ا بوجهٍ حسّي بهاء ذلك المنظر وهو في حقيقة الامر منظر يوافق حالتهم وهيئة معيشتهم حتى تغزّل فيه شعراؤهم منذ القديم . قال امرؤ القيس في مثل ذلك

وبوم عقرتُ للعذارى مطيّتي فيا عجبًا من رحلها المتحمّلِ
فظلّ العذارى يرتمينَ بلحمها وشحمٍ كهدّاب الدمقس المفتّلِ

فما قولكنّ ذوات اللطف لو رأينّ ناقةً منحورةً تكاد لم تسلخ والعذارى يتهافتنَ على انتهاب لحمها وشحمها أفهناك مرأى يتغزّل به . كلّا لو كان في منازلكنّ الانيقة . بيد انكنّ لو ذهبتنّ الى البادية ورأينّ الطبيعة لم تفعل بها ايدي البشر والناس والخيل والابل والغنم وسائر الحيوانات في حظيرة واحدة وأُجلستنّ ثمّة على مقاعد الى جانب مائدة وملاعق وسكاكين وزجاجات وامامكنّ المناشف لما عرفتنّ ان تأكلنّ وانفلتت المشكات من ايديكنّ وقلتنّ قول شاعرنا

ولقد غدوت وفي يدي فريكةٌ بالعرض تمشي مشية السرطانِ

والغالب عندهم ان لا يؤاكل الرجال النساء خصوصًا في بيوت الوجهاء منهم لان لكلٍّ منهم مضيفًا يحضر اليه طعامه وطعام من حضر عنده . وان توارى الى حرمه نُسب الى الخسّة واللؤم . واكرام الضيف عندهم اشهر من ان يذكر وسآتي على ذكر شيء من ذلك

هذا وان الله سبحانه قد خصّ كل قوم بما وافق منازلهم واسباب حياتهم وهكذا فملابس البدو كلها اوفق ما امكن لمقتضيات معيشتهم وحالة بلادهم . فلو وضعنا الاوربي في البادية لستر رأسه بما ندعوه بالكوفية وشدها بالعقال . فاذا ستر البدوي رأسه على ما تقدم وليس القميص الطويل وهو الثوب عند اكثرهم والدشداشة عند بعض والدرّاعة عند آخرين وشدّ وسطه بحبل او خيط وليس العباءة فوق الثوب فقد تمّت كسوته واذا زاد الزبون وهو القفطان المعروف

(١) المنطع عندهم يستعمل في ولائم الزفاف وهو المخروف بقسم شطرين من الراس الى الأليّة ويجعل كل شطر منه فوق كديس من الارز على صدر متوسط الحجم

عندنا بالقباز او الضباز فهو في لباس العرس او "البالو" وقلما تفصل الثياب بل تبقى على جسد صاحبها حتى تبلى وعلى ذلك قول شاعر الجاهلية

من بكُ ذا بثٍّ فهذا بثّي مقيظٌ مصيفٌ مشتّي

اما العباءة فلها عندهم شأن بل شؤون يستترون بها من حرّ الشمس ويتّقون بها قرّ الشتاء وهي وسادتهم في الصيف وفراشهم وغطاؤهم في الشتاء واناؤهم اذا حملوا شيئًا وكثيرًا ما يجاون فيها اللحم والارزّ والطفل وكبش الغنم والقنبصة وكل ما تناولته يدهم فما أقدر الانسان على حصر حاجاته في بقام السترة والوسادة والفراش واللحاف والكرسي والسجادة ولا بأس لو قلنا والعدل والقدر في بعض الاحيان فهيّا قل لاحدنا احمل كل هذه وسر بها وهي على ظهرك (ستأتي البقية)

العقل والجسد

واعتبار علاقتهما بالتربية والتعليم

العقل مرتبط بالجسد ارتباطًا متينًا على ما يشهد به الاختبار وعلى ما تثبته الابحاث العلمية. وحقيقة هذا الارتباط غير مُدرَكة كما ان حقيقة العقل غير مدركة. ولكن اذا نظرنا في ما يظهر من افعال العقل والجسد وجدنا انهُ لا يحدث فعل عقلي ما لم يصاحبهُ فعل جسديٌّ بل وجدنا ان افعال العقل منوطٌ اجراؤها ببعض اعضاء الجسد وانها تتنوّع بحسب حالة هذه الاعضاء من الصحة والمرض والراحة والتعب والقوّة والضعف مما يدلُّ على وجود علاقة بين افعال العقل وافعال الجسد. والاعضاء المنوطة بها افعال العقل هي المجموع العصبي اي الدماغ والحبل الشوكي والاعصاب المتفرّعة منها. والدماغ اهمها وفيهِ مراكز القوى العقلية

وهذا المجموع العصبي مؤلف من كتل يقال لها المراكز العصبية وهي مودعة في الرأس والعمود الفقري ومن خيوط عصبية تصل بين هذه المراكز واعضاء الجسد وهي الاعصاب. والاعصاب على نوعين نوع ينقل التأثير الى المراكز العصبية ويقال له اعصاب الحس ونوع ينقل الاوامر من المراكز العصبية الى العضلات لكي تحرّك بحسبها ويقال لهُ اعصاب الحركة

والمراكز العصبية متباينة في وظائفها فاساها في الدماغ وادناها في العمود الفقري. والافعال العقلية منوطة بالمراكز الأولى حتى يسوغ لنا ان نقول ان العقل منوط بالدماغ وان نسبة الدماغ الى بقية المراكز العصبية نسبة المدير الى جمهور العمال فانهُ يعمل الاعمال التي تقتضي نظرًا وروية